

الأسس الفكرية للبيروالية: الفردية ج 1

الكاتب: د عبد الرحيم بن صمائل السلمي



الحرية والفردية

"الفردية هي السمة الأساسية الأولى لعصر النهضة، فها هو عصر النهضة يأتي كرد فعل لفكر القرون الوسطى، ويتحرر الفرد من الانضباط الكاثوليكي الطويل"(1)

وقد ارتبطت الحرية بالفردية ارتباطاً وثيقاً، فأصبحت الفردية تعني استقلال الفرد وحياته، وفي ذلك يقول جون ديوبي "كانت فكرة الحرية مرتبطة في تقاليد مذهب الأحرار - عند كل من الأميركيين والإنجليز بفكرة الفردية؛ أي: بالفرد نفسه من حيث هو فرد، وكان هذا الارتباط وثيقاً وكثير الورود على الألسنة، حتى خاله الناس أمراً ذاتياً أصلياً"(2)

وقد جاءت هذه الفردية بمفهومين مختلفين:

أحدهما: الفردية بمعنى الأنانية وحب الذات، وهذا المعنى هو الذي غلب على الفكر الليبرالي منذ عصر النهضة وإلى القرن العشرين، وهذا هو الاتجاه التقليدي في الأدبيات الليبرالية.

والثاني: الفردية بمعنى استقلال الفرد من خلال العمل المتواصل والاعتماد على النفس، هذا هو الاتجاه البراجماتي، وهو مفهوم حديث للفردية.. ومن خلال هذين المفهومين يت畢ن حقيقة الفردية في الفكر الليبرالي، وهو الأساس الذي تعود إليه الليبرالية، ومن خلاله يتضح معناها.

أولاً: الفردية التقليدية

يربط الليبراليون الفردية بالطبيعة البشرية، فحالة الطبيعة الأولى هي الصورة الحقيقية للإنسان، فيرى هوبيز أن الطبيعة الإنسانية شريرة أنانية، تؤكد على الذات وتسعى لتحقيقها وحمايتها، ولكن جون لوك يختلف معه في أن الإنسان شرير، ويوافقه في تأكيده لذاته (3)

وقد كان هوبيز أكثر أصالة في تصوّره الليبرالي لحقيقة الإنسان من جون لوك

(4)، مع أن لوك وصل لذات النتيجة بطريقة آخر حيث قرر الملكية الخاصة بصورة أنانية محضره.

فقد قرر لوك أن الله تعالى أعطى الأرض لبني آدم مشاعاً بينهم، وجعل العمل هو المبرر الوحيد للملكية (5)، ولكن لوك وقع في تناقض خطير، حيث اعتمد في قوله بأن الله أعطى الأرض لبني آدم مشاعاً بينهم على أساس ديني خبri، ثم زعم أن العمل هو الوسيلة الوحيدة للملكية بناء على ما قررته الطبيعة، وهذا مستند عقلي، وقد أراد لوك أن يعطي العمل قيمة عليا فجعله أساس الحرية الفردية.

وقد بني "كانت" نظريته الأخلاقية على استقلال إرادة الفرد في مقولته الشهيرة "إن الأخلاقية تنحصر في معاملة الأفراد كغايات" (6) ولهذا يقول "اعمل دائمًا بحيث يكون في استطاعتك أن تجعل من قاعدة فعلك قانوناً كلها للطبيعة.. واعمل دائمًا بحيث تعامل الإنسانية في شخصك، وفي أشخاص الآخرين كغاية لا بمجرد وسيلة.. واعمل بحيث تكون إرادتك -باعتبارك كائناً ناطقاً- هي الإرادة المشرعة الكلية" (7)

وهو يقصد التأكيد على استقلال الفرد الذاتي، وأن إرادته يجب أن تكون إرادة حرة مستقلة، ولكن رؤية "كانت" جاءت نظرية وليس عمليّة، ولهذا اعتبرها جون ديوي أخلاقاً صورية (8)

المنفعة والفردية

وقد ارتبطت الفردية بالمنفعة التي ترى "أن الخير هو اللذة، والشر هو الألم، ومن هنا فإن أفضل حالة يمكن بلوغها هي تلك التي يبلغ فيها تفوق اللذة على الألم أقصى مداه" (9)

وهذا النوع من الفردية نجده لدى بنشام (10)، فإن فكره الفلسفـي يعتمد على منفعة فردية من خلال السعادة التي تتحقق عبر الملكية الخاصة، والتي تعنى النفعية في صورتها الخالصة، وهي ملكية أي شيء قد يأتي منه فائدة أو مصلحة أو لذة، أو خير أو سعادة (11)، وقد كانت منفعة بنشام هي الوشیحة التي قررتـه من الليبرالية لدعم برنامجه القانوني المبني على المنفعة.

فالفردية والنفعية والأنانية مترابطة بصورة وثيقة، يقول ستيفن لووكس في كتابه الفردية: "فالذهب الأنوي في الأخلاق، هو ذلك الذهب الذي يسلم بالمبادئ الأخلاقية بوصفها مبادئ فردية على نحو قاطع. لكن يوجد هناك مذهب يصل بتلك المبادئ الفردية إلى أقصى حد ممكن، ذلك الذهب يمكن أن نورخ له بصورة أساسية من القرن التاسع عشر، والذي سوف نطلق عليه من الآن فصاعداً "الذهب الفردي في الأخلاق"(12) ويمكن القول بأن تطور الفردية والأنانية هو تطور مزدوج يحمل وجهاً إيجابياً؛ أي: تقدم الشخصية الفردية، كما يحمل وجهاً سلبياً؛ أي: تقدم الأنانية من وجهة نظر المجتمع والفرد في آن واحد (13)

وتحقق الإنسان لفرديته لا يتعارض مع الوضع الاجتماعي العام؛ حنه كلما زاد سعي الفرد لمصلحته الخاصة فإن قانون الطبيعة يقوم بتنظيم الأمور الفردية المتعددة لتدعي النفع الاجتماعي العام، وهذه العملية التوفيقية بين الفرد والمجتمع نسبها الليبراليون إلى الطبيعة، وقد سماها آدم سميث "اليد الخفية" وهي التي قال عنها ريكاردو (14) : "إن السعي وراء الميزة الفردية يرتبط بشكل يدعو إلى الإعجاب مع الخير العام للكافحة"(15)

الإشارات المرجعية:

١. تاريخ الفكر السياسي 358/1
٢. الحرية والثقافة ص 33
٣. انظر: في فلسفة السياسة ص 100
٤. السبب في خلاف لوك لهوبز هو أن طبقة البرجوازية أرادت تسويق فكرة الحرية الفردية التي تبرر لها كسب الأموال بأي طريق، ولكنها عدلت عن رأي هوبز لأنه ليس له قبول كرجل ملحد بالإضافة إلى أن الوحشية التي صور بها الإنسان ليس لها قبول نفسي، وأيضاً النتيجة التي توصل لها وهي ضرورة الاستبداد للخروج من حالة الطبيعة، وقد عدلت إلى لوك حنه مسيحي، وخاطب المجتمع بطريقة دينية توصل للمطلوب، انظر الليبرالية إشكالية مفهوم 68 ص 70

٦. تطور الفكر السياسي 89/4
٧. كانت أو الفلسفة النقدية ص 199
٨. انظر: مفهوم الليبرالية عند جون ديوي ص 65
٩. حكمة الغرب 213/2
١٠. جيرمي بنتام: فيلسوف وعالم اقتصاد إنكليزي، ولد سنة 1748م، وتُعرف فلسفته بالبنثامية، وخلاصتها: أن المتعة هي غاية الحياة الأساسية، وأن هدف القانون هو تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس.
١١. ن克拉 عن الليبرالية إشكالية مفهوم ص 56
١٢. المرجع السابق ص 50
١٣. المعجم الناطق لعلم الاجتماع ص 415
١٤. ديفيد ريكاردو: عالم اقتصاد إنجليزي، ولد سنة 1772م، يعتبر مؤسس المدرسة الكلاسيكية في علم الاقتصاد، وقد تأثر بآرائه كل من توماس روبارت مالتوس وجون ستيفوارت مل وكارل ماركس
١٥. ن克拉 عن تطور الفكر السياسي 913/4
المصدر:
- د. عبد الرحيم بن صمايل السلمي، حقيقة الليبرالية و موقف الإسلام منها،
ص 146

الكلمات المفتاحية:

#الليبرالية #الفردية

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.